طائفة كبيرة من الباحثين المعاصرين يطيب لها ان تعد السجع ـ وبقية المحسنات اللفظية ـ مظهرا من مظاهر الانحطاط ، يغلب على أدب الامة حين تنتكس الى الوراء ، وتشرع شمس حضارتها بالانطفاء . وفاتهم ان السجع ـ في حد ذاته ـ ليس من العيوب او النقائص التي تزري بالناثر ولو كان لهذا الزعم نصيب من الحقيقة لما وجد السجع ولا ابتدع ، بل لاهمله ارباب هذه الصناعة ـ صناعة الكتابة ـ التي ما بلغت اقصى درك من الانحطاط الا في عصرنا هذا الحديث ـ والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه !

والحقيقة ان السجع بمسي ثقيلا ممجوجا ، اذا بالغ الكاتب في الاتكال عليه ، او أفرط في استعماله ، او لجأ اليه تبجحا ومفاخرة بالتضلع اللغوي ! او حشره في الكلام حشرا ، دون ان تقتضي ذلك ضرورة او مناسبة ، او أرادة وسيلة تسلية وتزجية للفراغ مثل الاحاجي والالغاز تماما .

اما النقاد من السلف فقد نظروا الى السجع من زاوية ثانية ، اذ اعتبروه آلة من آلات صناعة الكتابة ـ على حد تعبيرهم يصطنعها الفنان لتلقيح فنه بكل المهارات الخاصة التي تفتقر اليها صناعته . والصانع يعرف آلاته ويحسن التمييز بينها ، ويتقن استعمالها ، ويعرف موضع كل منها ، ووقت حاجته الى اي منها . ويرى ابن الاثير الناقد الكبير ، ان احسان استعمال السجع هو محك البراعة او النبوغ ، يقول (1) :ـ

« لقد ذم بعض اصحابنا من ارباب هذه الصناعة السجع ، ولا ارى لذلك وجها سوى عجزهم ان يأتوا بمثله ، والا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم ، فانه قد اتى منه بالكثير ، حتى انه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر ، وبالجملة لم تخل منه سورة من السور . فان قيل ان النبي (ص) قال لبعضهم منكرا عليه وقد كلمه بكلام مسجوع : (اسجعا كسجع الكهان) ولولا ان السجع مكروه ، لما انكره النبي الكريم ، فالجواب على ذلك انه لو كره النبي السجع مطلقا لقال :« أسجعا ؟ » وسكت . فلما قال : اسجعا كسجع الكهان ؟ صار المعنى معلقا على امر . وعلم انه انما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير . وانه لم يذم السجع مطلقا . وكيف يذمه وقد ورد في القرآن الكريم ؟ بل هو (ص) قد نطق به في كثير من كلامه ؟.

نخلص من هذا الى ان استعمال السجع في النثر ، انما يحسن في مقامات معينة واحوال خاصة واغراض محدودة . وعند توفر تلك الاحوال والاغراض لا يسوغ للناثر ان يضرب عن السجع صفحا ، بل الاولى به ان كان متفقها باللغة عليما باسرارها ـ ان يطرز نثره به ، دون ان يتردد . وهذه خطب الامام ـ وهو أبلغ بليغ بعد ابن عمه محمد (ص) ـ تعتبر نماذج رفيعة للنثر المطرز بجميع ضروب البديع ، ونورد ـ على سبيل المثال ـ مقتطفات من احدى خطبه ، ونرجو من القارىء ان ينتبه الى الاسجاع خاصة : ـ كنت اخفضهم صوتا واعلاهم فوتا ، فطرت بعنانها واستبددت برهانها ، كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف ، لم يكن لاحد في مهمز ، ولا لقائل في مفمز .. الخ (2)

وهذا نموذج آخر من خطبة ثانية ، فلننتبه الى ضروب المحسنات البديعية : ـ كم اداريكم كما تداري الثياب المتداعية ، كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر ، كلما أطل عليكم منسر من مناسر اهل الشام اغلق كل رجل منكم بابه ، وانجحر انجحار الضبع في وجارها ، الذليل والله من نصرتموه . ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل . انكم والله لكثير في الباحات ، قليل تحت الرايات ، واني لعالم بما يصلحكم ويقيم اودكم . ولكني والله لا أرى اصلاحكم بافساد نفسي ، اضرع الله خدودكم ، واتعس جدودكم ، لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل ، ولا تبطلون الباطل كابطالكم الحق (3) ولا يجادل اثنان في ان كلام الامام قد بلغ اعلى مراتب الابداع الفني ، وان أهم العوامل التي وصلت به الى تلك المنزلة الرفيعة ، اعتماده على ضروب البديع ، ومهارته في استعمالها ، وادراكه لاسرار جمالها ، على الرغم من ان المصطلحات البلاغية لم تكن قد وجدت ، اعني درست بالطرق العلمية في زمانه .

ثم ان اغلب نماذج النثر الفني العالي الذي استعمل في عهود الاسلام الاولى كخطب ورسائل ، انما تستند الى فنون البديع وضروب المحسنات ، وتقوم عليها اساسا . وهذا يبطل الادعاء القائل بان السجع والطباق والجناس وغيرها من ضروب البديع ، انما هي احدى علامات

---

(1) ابن الاثير ـ المثل السائر جـ ١ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ..

(2) شرح نهج البلاغة ـ لابن ابي حديد . تحقيق : نور الدين شرف الدين ومحمد خليل الزين .

3 ـ شرح نهج البلاغة جـ ٢ .

انحطاط الحضارة وكسوف شمسها . كيف يعللون اذن كون علم البلاغة نفسه انما وجد وظهر في مبدأ امره ، للارشاد الى ما في القرآن الكريم من سحر البيان وفنون البلاغة ؟!

كان لا بد من هذه المقدمة لموضوع اليوم ، لاني رأيت اغلب المستشرقين الغربيين وفئة كبيرة من الباحثين العرب المعاصرين يرون ان استعمال السجع ، في موضعه ، واساءة استعماله ، هما مسألة واحدة! وهو امر عجب . ومن ثم نجدهم يهاجمون نثرنا الفني منذ القرن الرابع للهجرة ، زاعمين انه كان نثرا مبتذلا سخيفا متصنعا . وفي المدارس يلقنون الطلبة بأن ابن العميد هو المسؤول عن تفقيس هذه البيضة الملعونة : التصنع واستعمال المحسنات البديعية !! وان القاضي الفاضل اوغل في الجريمة حتى افسد النثر كله !

هكذا وبضربة واحدة يحطمون لا النثر وحده ، وانما تاريخنا بل حضارتنا كلها . فابن العميد ـ كما نعلم ـ عاش في القرن الرابع للهجرة وهو العهد الذي نضج فيه النثر ، وبلغ فيه ـ على الحقيقة لا على ما تعلمه كتب المدارس ـ ذروة ازدهاره . اذ استطاع ان يعبر عن كل حاجات الحضارة العربية العميقة وذات التأثير الضخم في مجرى تاريخ الانسان . بل ان الاعداء قبل الاصدقاء يعترفون بفصة ، ان حضارتنا العربية الاسلامية انما بلغت قمة الازدهار والتكامل والتفتح في عصر ابن العميد ـ القرن الرابع . وكيف لا يكون الامر كذلك وقد اجتمعت فيه النجوم المتلألئة من شمس الادب والفن والفكر ، اذ نبغ فيه العمالقة الذين سنعدد منهم على سبيل المثال لا الحصر طائفة: المتنبي ، الصاحب بن عباد ، ابن العميد ، القاضي الجرجاني ، ابو اسحق الصابي ، ابن مسكويه ، ابن جنى ، ابن خالويه ، ابو بكر الصولي ، ابو الفرج الاصبهاني ـ ابو نصر الفارابي ، ابو علي الفارسي، ابو بكر الخوارزمي ، ابو حيان التوحيدي ، بديع الزمان الهمذاني ، ابن النديم ، ابو علي القالي ، الحسن بن بشر الآمدي ، ابو منصور الثعالبي ، الجوهري ، ـ ابو فراس الحمداني ، ابن هانيء الاندلسي ـ السري الرفاء ـ كشاجم ـ الخالديان ، ابن نباتة ـ وغير هؤلاء من عشرات ومئات الادباء ، والمفكرين ، والمتصوفة ، وابطال السيف ، ورجال السياسة ، وفي مقدمتهم : سيف الدولة الحمداني وعضد الدولة البويهي ، وكافور الاخشيدي .

كيف يبدأ النثر بالانحطاط والسقوط في عصر هذه صفته وتلك نعوته ؟

ذلك هو لغز هم ولن نجد له ـ بالتأكيد ـ أي حل !! واما بعد فاليك ايها القارىء اسوق القصة الممتعة ، قصة بديع الزمان الهمذاني ليكون حكمنا عليه عادلا ، وننصفه من متأربي هذا الزمان !

ابو الفضل احمد بن الحسين الملقب ببديع الزمان رجل ذو شخصية خارقة يحيط بها الغموض من كل جانب ، فقد اختلف المؤرخون في تاريخ مولده وموعد وفاته ، بل حتى في سبب هلاكه ، فابن خلكان الذي يسعى جاهدا في كتابه الرائع (وفيات الاعيان) ان يضبط المواليد والوفيات لجميع من يترجم لهم ، لم يشر الى تاريخ مولده ، واكتفى بذكر تاريخ الوفاة وهو سنة ٣٩٨ هـ وتغافل عن ذكر عمره . ثم انه ذكر علتين للوفاة ، احداهما انه مات مسموما بدون ان يعلق بحرف واحد على الجريمة ، والثاني انه مات بالسكتة . وتجنب ابن الاثير في كتابه المتع (الكامل) الاشارة الى مولده واكتفى ايضا بنقل تاريخ الوفاة ، وتابعهما في ذلك ابو الفدا في (تاريخه) المختصر، وفعل ذلك المستشرقون ايضا اذ اشار نيكلسون على سبيل المثال (٤) الى موعد وفاته بالتاريخ الميلادي وهو ١٠٠٧ ، سبع والف للميلاد . اما المحقق المتخصص في نشر كنوز التراث ، الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ جزاه الله كل خير على جليل خدماته للفتنا العظيمة ـ فقد اقتصر هو ايضا في كتاب (مقامات بديع الزمان) الذي حققه ونشره ، على ذكر تاريخ الوفاة مضيفا اليه انه كان في الاربعين من عمره حينئذ . وعلى هذا يكون مولده سنة ٣٥٨ هـ .

كان البديع من اعجب الشخصيات التي انجبتها امتنا ، كان من ذلك الصنف من البشر الذي يطل على الدنيا فيقيمها ويقعدها بين ليلة وضحاها ثم يخمد الشهاب وينطفيء النور فجأة مثلما شع فجأة ، وتعود الحياة الى مجراها وكأن شيئا لم يكن . كان يملك حسا فنيا مرهفا ، وحافظة مذهلة تروى عن عجائبها الاساطير ، وكان الى ذلك ذا طموح شديد يدفعه ابدا الى تخطي كل العقبات بسرعة والوصول الى القمة ، مهما كلفه ذلك من ثمن . واذ علم من نفسه ما لا يعلمه غيره فيها من اسباب العبقرية ، بحث عن وسيلة او مناسبة ترفع من شأنه فلم يسعفه خياله الا بطريقة واحدة هي التصدي لاحد مشاهير عصره ، ومباراته على سبيل المساجلات الادبية والمقارعات الثقافية . وفي تلك الايام كان ابو بكر الخوارزمي (٥) قد احتل مكانة مرموقة في مجالس الادب وطارت شهرته في الآفاق ، فما كان من البديع الا ان ينبري لمساجلته ويتصدى لمنافسته ، ولما كان العمر قد تقدم بالخوارزمي فان البديع لم يشك بالتفوق عليه . وقد اثارت جرأة البديع وهو الاديب الناشيء ، للخوارزمي على ذيوع شهرته وعلو مقامه ، فضول رجال الفكر والادب وسعى الجميع الى حضور مجالس المناظرة التي عقدت في بيت احد الفضلاء .

في ذلك الوقت كان البديع في باكورة الشباب ، تزدهيه حافظته الخارقة ، وبديهته الحاضرة وذكاؤه الوقاد وعلمه الغزير ، وقد لجأ الى مباغتة عدوه بالاسئلة السريعة المتلاحقة ، يستقيها من ذاكرته العجيبة التي لم تخنه يوما . بينما اكتفى الخوارزمي باتخاذ موقف المدافع المتكبر ، وهو امر لا يحسد عليه .

وانتهت الجلسات ـ كما كان متوقعا لها ـ بسقوط هيبة الخوارزمي في اعين الناس ، وعلو شأن البديع ، وهكذا حقق امنيته وقضى على منافسه واخمل ذكره ، وتبوأ هو عرشه الثابت المكين . (٦)

وهذه المناظرات تقدم الى القارىء متعة عظيمة بالاضافة الى الفوائد الادبية التي يجنيها منها لا محالة . غير ان ما يهمنا في مبحثنا هذا انها تلقي الاضواء على خلق البديع وطبعه وشخصيته . ذلك ان المرء لا يستطيع الا ان يشعر بالنفور من تهافت البديع على الشهرة بشكل مريب . ويمقت انانيته واصراره على القضاء على خصمه بكل وسيلة ، معتمدا على المذهب الذي يقول (ان الغاية تبرر الواسطة) حتى ان الخوارزمي كان في معرض دفاعه عن نفسه يتهمه بالشعبذة ، وكان الامر بالفعل كذلك ، فقد طلب البديع منه متحديا ذات مرة ان يكتب كتابا اذا فسر على وجه كان مدحا ، واذا فسر على وجه آخر كان قدحا ! ثم طلب منه ان يكتب كتابا اوائل سطوره كلها ميم ، واخرها جيم على معنى معين !!

اما عن الخوارزمي فهو في هذه الخصومة يثير عطف القارىء رغم انبهار هذا ببراعة البديع وذكائه . والواقع ان ابلغ الفصحاء قد

---

٤ ـ A Literary History of The Arabs By B. A. Nicholson .

٥ ـ ابو بكر محمد بن العباس الخوارزمي امام في اللغة والانساب وشاعر مشهور قصد الصاحب بن عباد ثم هجاه ، ولما مات هجاه الصاحب . توفي سنة ٣٨٣ هـ ويقال انه ابن اخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ الشهير .

٦ ـ يستطيع القارىء ان يطلع على طرف حسن من هذه المساجلات في كتاب (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي) ليوسف البديعي تحقيق : مصطفى السقا وعبده زيادة عبده وكذلك كتاب زهر الآداب ج ١ ـ للحصري القيرواني ـ تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد وغيرهما من المراجع .

يصابون بالعي والحصر في مواقف مشابهة لهـذا الموقف وكتب الادب القديمة تحدثنا عن فرسان الخطابة الذين ارهبتهم المواقف ، وعقـدت السنتهم الرهبة ، فنزلوا من المنابر يجررون اذيال الخجـل والخيبة . لان طلاقة اللسان ليست دليلا على علو الكعب في دنيا الادب .

وقعت هذه المساجلات في نيسابور التي رحل اليها البديع عـام ٣٨٢ ولما كان الخوارزمي قد توفي على الارجح سنة ٣٨٣ فمعنى ذلـك ان تلك المساجلات قد جرت بين عامي ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ، وان الخيبة التـي مني بها الخوارزمي هي التي عجلت في دنو اجله .

على ان البديع لم يكسب من هذا الانتصار الماحق علـى عدوه الأ المجد الادبي ، اما احواله المعاشية فلم يكتب لهـا التحسن . والمعروف انه كان قد هوجم في طريقه الى نيسابور وسلب قطاع الطرق امواله جميعا ، فدخل نيسابور خالي الوفاض . بل كانت تلـك ـ في الواقع ـ ذريعته في التحرش بالخوارزمي ، اذ كتب اليه مشتكيا متوجعا مستعينا به على سد خلته ، وسأله الضيافة . غير ان الخوارزمي لم يتنبأ بمـا كتب له مع هذا الرجل ، فقابله ببرود ، ولم يبد حماسا لاستضافتـه ، رغم توسلات البديع وتجشمه مذلـة السؤال .

يروي لنا البديع مقدمات الخصومة التـي قامت بينـه وبين الخوارزمي ، نزولا عند رغبة صديقه ابي القاسم احد اشراف بغداد . مع العلم ان التاريخ لم يسجل هذا الحادث الا عن طريق هذه الروايـة المفـردة :

يقول البديع (اول القصة انا وطئنا خراسان فمـا اخترنـا الا نيسابور دارا والا جوار السادة جوارا) . وقديما كنا نسمع بهـذا الفاضل ، ونقدر انا اذا وردنـا بلده ، يخرج لنـا في العشرة عـن القشرة . فقد كانت لحمة الادب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظمتنا ، وقـد قال امرؤ القيس :

اجارتنا انـا غريبان هـا هنـا وكـل غريب للغريـب نسيـب

فاخلف ذلك الظن كل الاخلاف ، واختلف في ذلك التقدير كـل الاختلاف . وقد كان اتفق علينا في الطريق من الاعراب اتفاق ، لـم يوجبه استحقاق من بزة بزوها ، وفضة فضوها ، وذهب ذهبوا بـه ، فوردنا نيسابور براحة أنقى من الراحـة ! وزي اوحش من طلعـة المعلم (!) فما حللنا الا قصبة جواره ، ولا وطئنا الا عتبة داره بعدمـا كتبنا له : انا لقرب الاستاذ اطال الله بقاه « كما طرب النشوان مالت به الخمر » ، ومن الارتياح للقائه « كما انتفض العصفور بلله القطر » ، ومن الامتزاج بولائه « كما التقت الصهباء والبارد العـذب » . فكيف نشاط الاستاذ لصديق طوى اليه ما بين قصبتي العراق وخراسان . وهو أيده الله ولي انعامه بانفاذ غلامه الى مستقري لافضي اليه بمـا عندي . فلما اخذتنا عينه سقانا الدردي (عكر الزيت برسب في اسفل الوعاء) من اول دنه ، واجنانا سوء العشرة من باكورة فنـه ، من طرف نظر بشطره ، وصديق استهان بقدره ، وضيف استخف بأمره ، فقاربناه اذ جانب ، وواصلناه اذ جاذب ، وشربناه على كدورته ، ولبسناه على خشونته . ورددنا الامر في ذلك الى زي استفثه ، ولباس استرثـه ، وكاتبناه نستمد وداده ، ونستميل فؤاده . وقـد فبلت تربيته صعرا . واحتملته وزرا . واحتضنته نكرا ، وتابطته شرا ! ولم آله عذرا ، فـان المرء بالمال وثياب الجمال ، ولست مـع هـذه الحال ، وفي هـذه الاسمال !) والحكاية طويلة ولكنها ذات طرائف ولطائف ويمكن مراجعتها في مصادر كتبنا .

ويلاحظ في هذا الباب ان الدفاع عن الخوارزمي غير ممكن ، اذ ان المصنفات القديمة لم تعبأ بنقل ذلك . وهذا يمنع الباحث مـن اصدار حكم قاطع في الخصومة كلها لانها بلسان واحد من الخصمين .

ونمضي في تتبع تفاصيل حياة البديع فـي (يتيمة الدهـر) للثعالبي (٧) ، فنسمع ان البديع نال كل ما يصبو اليه من شهرة ، وعلو شأن بعد تأليفه لمقاماته الاربعمائة . ثم خلا لـه الجـو بوفاة خصمه الخوارزمي فأقبل الدهر عليه بعد ادبار . ولم يبق اميـر ولا رئيس ولا وزير بين خراسان وسجستان وغزنة وارجان ، الا مدحه ونـال جوائزه واهباته ، ثم انه القى عصا الترحال فـي (هـراة) ، وصاهر احـد اشرافها ، فسعدت حاله ، واقتنى الضياع الفاخرة ، وعاش عيشـة راضية . غير انه لم يهنأ بعمره ، اذ سرعان ما اخترمته يد المنون ، وهو دون الاربعين او على بابها ، وذلك في حادي عشرة جمادى الاخيرة سنة ٣٩٨ هـ ، فبكت عليه منتديات الادب ، ورثاه افاضل الشعراء والكتاب. ومما يرويه صاحب (اليتيمة) عن سرعة خاطره وذكاء قريحته قـولـه (كان يصغي الى قصيدة لم يسمعها قط ، تزيد على الخمسين بيتـا فيحفظها في الساعة . وكان يقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر ، فيرتجله في اسرع من الطرف ، على ريـق لا يبلعـه ، ونفس لا يقطعه ، وكان يترجم ما يقترح عليه من الابيات الفارسية المشتملـة على المعاني الغريبة بالابيات العربية، فيجمع فيها بين الابداع والاسراع، اما عن خلقه وشكله وشخصيته فيقول : كان مقبـول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، كثير الظرف ، شريف النفس خالص المودة ، حلـو الصداقـة ، غير انه كـان مر العداوة !

وترشدنا الرسائل التي كتبها البديع الى أهله ومعارفه واصحابه، الى كثير من خلقه ومظاهر شخصيته . هذه رسالة لطيفة تشير الـى لخفة روحه كتبها الى مستميح عاوده مرارا ، وقال له : لم لا تديـم الجود بالذهب كما تديمه بالادب ؟ فكانت اجابة البديع كما يلي :

(يا عافاك الله مثل الانسان في الاحسان ، كمثل الاشجار فـي الاثمار ، سبيله اذا اتى بالحسنة ان يرفه الى سنة ، وانا كمـا ذكرت لا املك عضوين في جسدي وهما فؤادي ويدي ، امـا الفؤاد فيعلـق بالوفود ، واما اليد فتولع بالجود ، ولكن هـذا الخلـق النفيس لا يساعده الكيس ! وهذا الطبع الكريـم ليس يحتمله الفريم ، ولا قرابة بين الذهب والادب فلم جمعت بينهما ؟ والادب لا يمكن ثرده فـي قصعة ، ولا ضرفه في ثمن سلعة ، ولي مع الادب نادرة اذ جهدت فـي هذه الايام بالطباخ ان يطبخ لونا من جيمية الشماخ ، فلـم يفعـل ، وبالقصاب ان يسمع ادب الكتاب فلم يقبـل ، وانشدت فـي الحمام ديوان ابي تمام فلم ينفذ ، وآحتيج في البيت الى شيء مـن الزيت فانشدت من شعر الكميت ألفا ومائتي بيت ، فلم يغن !! فان كنت تحسب اختلافك الى افضالا علي ، فراحتـي ان لا تطـرق ساحتي ، وفرحـي الا تجي ! والسلام .)

ومما يرسم صورة لقابليته العجيبة على التهكم والدعابة والضحك حتى من نفسه قوله في احدى رسائله (اثنان قلما يجتمعان الخراسانية والانسانية !! وان لم اكن خراساني الطينة فاني خراسانـي المدينة ، والمرء من حيث يوجد لا من حيث يولد ، والانسان من حيث يثبت لا من حيث ينبت ، فاذا انضافت الى خراسان ولادة همذان ، ارتفع العلـم وسقط التكليف فلتحملني على هناتي ! اليس صاحبنا يقول :

لا تلمنـي علـى ركاكـة عقلـي اذ تيقنـت انني همذانـي ! (٨)

وكتب الى بعض اخوانه جوابا عن كتاب كتبه يهنيه بمرض ابـي بكر الخوارزمي :

(الحر ـ اطال الله بقاءك ـ لا سيما اذا عرف الدهـر معرفتي ، ووصف احواله صفتي ، اذا نظر علم ان نعم الدهر مـا دامت معدومة فهي اماني ، وان وجدت فهـي عواري ، وان مـن محن الايام وان طالت

٧ ـ ليست اليتيمة بين يدي في هذه اللحظة ، وانما اقتبس مما نقله عنها الكتاب القيم : (معاهد التنصيص) لعبد الرحيم العباسي.

٨ ـ شرح شواهد التلخيص المرسوم بمعاهد التنصيص ـ عبـد الرحيم العباسي ـ المطبعة البهية بمصر سنة ١٣١٦ هـ .

فستنفد ، وان لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالمحنة مـــن لا يأمنها في نفسه ، ولا يعدمها في جنسه ، والشامت ان أفلت فليس يفـوت ، وان لم يمت فسيموت ، وما اقبح الشماتة بمن أمن الامانة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ، وهذا الفاضل ـ شفاه الله ـ وان ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه ودا جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الاحقاد ، فـلا تتصور حالتي الا بصورتها من التوجع لعلته ، والتحزن لمرضته ، وفاه الله المكروه ، ووقاني سمـاع المحذور فيـه ، بمنـه وحولـه ، ولطفـه وطولـه . (٩)

وبعد فرسائل البديع مبثوثة بين صفحات الكتب الادبية جميعا ، اذ اعجب به الادباء والمترسلون والنقاد القدماء ، واعتبروا انشاءه فنا يقتدى به وتحلى به صفحات الادب . لكن (المقامات) هي احسن آثاره، وبالرغم من ان الاسلوب العام فيها لا يختلف عن اسلوب رسائله ، التـي أوردنا فقرات منها في هذا المقال ، الا ان هذه المقامـات حريـة ان تنال من المعاصرين اهتماما اوسع مما نالته حتى الان . واعظم خطأ وقع فيـه المعاصرون اعتبارهم اياها مجرد اسلوب ادبي ، شاع في عصر اتسم فيـه النثر بالصناعة اللفظية ، وعرف عن ادبائه العناية بالمبنى دون المعنى ، وبالمظهر دون الجوهر ، وبالشكل دون المضمون . غير اننا اذا نظرنا الى المقامات من زاوية محايدة ، وغير متأثـــرة بتخرصات المستشرقيـــن المغرضين ، استطعنا ان نعطي لها تفسيرا جديدا كل الجدة .

ان المقامة في اصلها اللغوي المجلس ـ يجتمع فيه الناس ، ثـم استعملها الادباء في الخطبة او العظة (١٠) ثم خصوصا بالقصص التـي يتحدثون بها عن ألسنة قوم يسمونهم رواة ، ويجيئون فيهـا بالاغراض المختلفة (١١) والتعريف الاخير ـ وهو ناقص على كل حال ـ هو الذي تدخل مقامات البديع في ضمنه .

لقد اعتمد البديع على السجع ، واتخـذه اسلوبا ثابتا لمقاماتـه لسببين اساسيين ، اولهما انه كان يرى السجع محك بلاغـة الكاتب ومظهر نبوغه ، والثاني ان الموضوع التهكمي ذا الطابع الهزلي ، يلائمـه السجع الخفيف والمحسنات البديعية الاخرى كالطباق والجناس اكثـر من اسلوب الترسل الجاد المتين . ولكي نوضح هذا المعنى سأضع امام القارىء احدى مقامـات البديع ، المقامـة الحلوانية ليكون على بينة تامة مما نقول :

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما قفلت مـن الحـج فيمن قفل ، ونزلت حلوان مع من نزل ، قلت لغلامـي : اجد شعري طويـلا وقد اتسخ بدني قليلا ، فاختر لنا حماما ندخله وحجاما نستعمله ، وليكن الحمـام واسع الرفعة نظيف البقعة ، طيب الهواء ، معتدل الماء ، وليكن الحجام خفيف اليد ، حديد الموسى ، نظيف الثياب قليل الفضول ، فخرج مليا وعاد بطيا ، وقال : قد اخترته كما رسمت فأخذنا الى الحمام السمت ، واتيناه فلم نر قوامه لكني دخلته ودخل على اثري رجل ، وعمد الـى قطعة طين فلطخ بها جبيني ووضعها على رأسي . ثم خرج ودخل اخـر فجعل يدلكني دلكا يكد العظام ويغمزني غمزا يهد الاوصال ، ثم عمد الى رأسي يغسله والى الماء يرسله ، وما لبث ان دخل الاول فحيا اخـدع بمضمومة قعقعت انيابه ، وقال : يا لكع مالك ولهذا الرأس وهو لي ، ثم عطف الثاني على الاول بمجموعـة هتكت حجابه ، وقـال : بـل هـذا الرأس حقي وملكي وفي يدي . ثم تلاكما حتى عييا ، وتحاكما لما بقيا ، فأتيا صاحب الحمام فقال الاول : انا صاحب هذا الرأس لانـي لطخت جبينه ووضعت عليه طينة . وقال الثاني : بـل انـا مالكه لاني دلكـت حامله وغمزت مفاصله . ففـــال الحمامي : ائتونـــي بصاحب الرأس اسأله : الك هذا الرأس ام له !! فأتياني وقالا : لنـــا عندك شهادة فتجشم . فقمت وانيت شئت ام ابيت . فقال الحمامي : يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق ، وقل لي : هـــذا الرأس لايهما ؟! فقلت : يا عافاك الله هذا رأسي قد صحبني في الطريق وطاف معـي بالبيت العتيق ، ومـا شككت انه لي ، فقال لي : اسكت يا فضولي . ثم مال الى احد الخصمين فقال : يا هذا الى كم هذه المنافسة مع الناس بهذا الرأس ، تسل عن قليل خطره ، الى لعنة الله وحر سقره . وهب ان هذا الرأس ليس ، وانا لم نر هذا التيس ! قال عيسى بن هشام : فقمت من ذلك المكان خجلا ولبست الثياب وجلا ، وانسللت من الحمام عجلا . (١٢) الخ .

هذه المقامة الفكهـة ليست في موضوع الكدية ـ كما رأينا ـ وانما هي صورة لطيفـة للاحوال الاجتماعيـة التي عرفها المؤلف ، وقد وفق اعظم توفيـق الى رسـم لوحـة ضاحكـة للمشاكل التي كانت تجابـه الانسان في ذلـك العصر حيـن يريـد الاستحمام والحلاقة . والحكاية تذكرنـا بمقالات المرحوم ابراهيم عبدالقادر المازني ، الذي عالج مثل هذه القضايا فلم يسبـه احد ، ولم يوجه اليه النقـاد اي لوم ، بل علـى النقيض من ذلك اعتبروه احـد أكابـر كتاب الدعابة العاليـة ، والهـزل الفني في أدبنا الحديث . فمـا عـدا ممـا بدا ؟؟ والبديع المظلوم سبق المازني بعشرة قرون ، ام اننـا نقيس على قاعدة : البادي أظلم ! !

والحق ان المقامـات لا تدور جميعـا حول الكدية كما يخيـل للقارىء المتعجل ـ ولعنة الله على العجلة آفة العصريين ! ـ فهناك مثلا المقامة القريضية والمقامـة العراقية ، والمقامة الشعريـة ، وكلهـا فـي موضوع النقـد الادبي والدراسات الشعرية . ثم المقامة الاسدية ، وهي في موضوع السفر ومخاطره وعجائبه ، والمقامة الفيلانيـة التـي تروى قصـة خياليـة عـن الشاعـر ذي الرمة ، والمقامة الاهوازية والمقامـة الوعظيـة في الوعظ الديني ، والمقامة المضيرية في الجليس الثقيـل الذي يصرع رأس ضيفه بالهذر الـى ان يفقـد صوابه ، والمقامـــة الحمدانية يوردهـا المؤلف لاثبات تضلعه اللغوي ، والمقامة الرصافية تبين احوال المجرميـن واصنافهم ، والمقامـة العلمية في نعت العلم وذكـر فضائله ، والمقامـة الصيمريـة في غدر الاصحاب ونفاق الناس ، والمقامة الخمريـة في المتلونيـن الذيـن يرتـدون لباس التقـوى في النـهار، ويتحولون الى ابالسـة في الليـل .

هذه المقامـات البعيدة كل البعـد عن موضوع الاستجداء تمثـل خمس عدد المقامـات التي نشرهـا الاستاذ محمد محي الدين عبدالحميد في كتابه المقامـات ، ممـا يثبت ان البديع ما قصد مـن مقامـاته ان يصرع رؤوس الناس بالهذر الفارغ الخالي مـن الهدف . وانمـا اتخذها وسيلـة يعبـر بهـا عن فلسفـة اجتماعيـة كـان لهـا صدى بعيد في بيئة القرن الرابع الذي عاش فيه ، كمـا انه استعملهـا كما يستعمـل المصباح حيـن يكشف عـن الخبايا المظلمة المحجوبة عن العيان ، واستطاع بذلك ان يفضح كثيرا من مظاهر النفاق والزيف ، وغيرهما من الرذائل التي انساق اليهـا ابناء ذلك الزمـان .

ومن لوازم هذه المقامـات انهـا كانت ـ على الاغلب ـ تذيل وتختم بابيات من الشعر ذي البحـور الخفيفـة والقصيرة لتناسب المواضيـع

---

٩ ـ زهر الآداب ـ ابراهيم الحصري القيرواني ـ شرح وضبط ـ الدكتور زكي مبارك وتحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .

١٠ ـ كمثل على هذا النوع من معنى المقامة ، مقامات جار اللـه الزمخشري ١٠٧٥ ـ ١١٤٤ م وهو من المعتزلة المعروفين .

١١ ـ مقامات بديع الزمان الهمذاني . شرح : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة الازهرية بمصر .

(١٢) مقامـات بديع الزمان الهمزاني ، تحقيق محمد محي الديـن عبـدالحميـد .

الهزلية التي تدور حولها المقامة . وهذه المقطعات الشعرية تلخص مبادىء ابي الفتح الاسكندري بطل المقامات . واول ما يؤمن به الاسكندري العبث واللامبالاة ، وايثار السلامة والراحة ، وتجنب كل ما يؤلم النفس ، وطرح المسؤوليات باي شكل كانت ، ولكي يبلغ الانسان تلك الغايات ، فان عليه ان يقتدي بالحرباء في تلونها ، يلبس لكل حالة لبوسها ، ويجاري كل من كانت له معه مصلحة او نفع ، ويماشي الزمان ، ويدور معه حيث دار ، يقول في خاتمة احدى المقامات :

ويحك هذا الزمان زور : فلا يغرنك الغرور
لا تلتزم حالة ولكن : در بالليالي كما تدور

ثم ان العقل والحكمة والرصانة والكبرياء ـ في رأي الاسكندري ـ لا تؤدي بصاحبها الا الى الفقر ، وخمول الذكر ، وزيادة الهم ،وهو لذلك يؤثر السفاهة والطمع ، والسخافة والحمق ، اذا كان لا بد منها لنيل الرغائب ، وتحقيق الامال يقول : ـ

هذا الزمان مشوم : كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح : والعقل عيبوشوم

ولا لوم على الانسان الاحمق لان : ـ

الذنب للايام لا لي : فاعتب على صرف الليالي
بالحمق ادركت المنى : ورفلت في حلل الجمال !

او يقول :

انا من ذوي الاسكندرية : من نبعة فيهم زكية
سخف الزمان واهله : فركبت من سخفي مطية

وما على المرء اذن الا ان يكون ابن يومه ، لا يفكر في غد ، ولا يحمل هموم احد ، ولا يبالي بغير رغباته الآنية : ـ

كان لي فيما مضى عقل ودين واستقامه
ثم قد بعنا ـ بحمد الله ـ فقها بحجامه !

والفقه معرفة الاحكام الشرعية ، وهو علم شريف . اما الحجامه، الحلاقة ، فهي عندهم حرفة دنيئة . والمقصود انه ترك الفضيلة واشتغل بالمفاسد (١٣)

يكره نقادنا المحدثون في مقامات البديع اتخاذها الكدية ـ اي الاستجداء ـ موضوعا اساسيا لها . ويرون ان الاستجداء غرض تافه وحقير ، ولا يليق ان يحظى بعناية اديب يحترم نفسه . وهذاتعليل ـ لعمر الحق ـ شاذ وغريب عن مفهوم الادب . فلقد كان الادب دائما مرآة عاكسة شديدة الصفاء ، تعرض الوقائع والحقائق مهما كان لونها وشكلها ، وتلك هي مهمة الاديب ابدا . وانما يتباين الادباء في المواقف التي يتخذونها من تلك الوقائع والحقائق ، كما يتباينون في الاساليب الادبية التي يبتكرونها للتعبير عما تجود به قرائحهم من افكار . ولدينا كتاب اوروبا الحديثة ، وادباؤها العظام ، ما لنا لا نسأل انفسنا عن الموضوع (اللائق) الذي حظي باهتمامهم جميعا؟! الم يكن دائما حياة الطبقات الدنيا ومآسيها ؟؟ جان فالجان بطل (البؤساء) ماذا كان ؟؟ راسكو لنيكون بطل (الجريمة والعقاب) من هو ؟؟؟ ابطال روايات تشارلز دكنز من كانوا ؟؟ ابطال ماكسيم غوركي؟ وابطال تولستوي والخ .

الم يكن هؤلاء جميعا من اللصوص الفقراء او الصعاليك المحتالين ، او القتلة السفاكين للدماء ، ولكن المؤلفين الذين رسموا شخصياتهم عرفوا كيف يغيرون آراءنا في جرائمهم وعاميتهموحماقاتهم ووفقوا الى تحويل عدائنا لمن كان على شاكلتهم ، الى عاطف ورثاء ورحمة لهم ، بفضل الدفاع العاطفي الحار الذي دبجوه من اجل تلك العناية ، فلماذا يسكت نقادنا المعاصرون عن اولئك الكتاب الغربيين ، ويملأون الدنيا عويلا وسبا ولعنات على ادبنا المسكين ، لانه تعرض الى (ما لا يليق) من المواضيع ، وهو استجداء الفقراء . فلنقرأ المقامات بامعان وتدبر ، وسنرى جميعا ان ابا الفتح الاسكندري ، كان في كل مواقفه رجلا طبيعيا يسلك المسلك الذي فرضه عليه مجتمع ذلك الزمن فرضا ، فلم يجد بدا من الانسياق في التيار .

والواقع ان الانسان لا يستطيع ان يحكم على أفكار البديع في مقاماته ، قبل ان يدرس ظروف القرن الرابع للهجرة ، دراسة هادئة ومحايدة ومنزهة عن الاهواء . لقد كانت حياة الناس ـ الرعية ـ هي الخراب عينه ، كان الشعب عرضة لضروب النكبات من طواعين ومجاعات ومظالم ، ونهب ، وسجن وقتل ، اذ كان الحكام لا يهمهم غير توسيع ممتلكاتهم وزيادة ثرواتهم ، ولم يفكروا في الشعب وراحته واطمئنانه . وكيف ؟؟ وأغلب هؤلاء الحكام أجانب عن الامة لا يحسون احساسها ، ولا يهمهم مصيرها . وكان القرن الرابع في الوقت نفسه عصر الازدهار الثقافي اذ انتشرت عشرات المذاهب الفكرية والنظريات الاجتماعية والافكار الادبية ، وكانت المبادىء الباطنية التخريبية تنخر فيجسم المجتمع فتفتته ، وافكار المجوسية والوثنية المغلوبة على امرها ،تضلل عقول البسطاء ، وكانت الرعية تنظر الى كل ذلك بذهول يشبهالغباء، وعجب يقرب من البلادة . وهنا جاء ابو الفتح الاسكندري ،وهو واحد من فقراء الشعب وعامتهم ، يعرض موقفه الذي يراه انسب المواقف في مثل تلك الظروف المعقدة . ماذا على الرجل العاطل الذي لا يملك شروى نقير ، أن يفعل لكي يعيش بسلام وامان وعافية ، دون انيتعرض لمخاطر السياسة او يقترب من اوكار المجرمين ؟؟ لقد كانت الكدية والتطفل هي الحل الوحيد !! تلك هي افكار ابي الفتحالاسكندري بطل المقامات ، اما عيسى بن هشام الراوية الذي يسرد عليك طرائف الاسكندري ـ وعيسى هو البديع نفسه ـ فان موقفه يغاير موقف الاسكندري ، وعلى القارىء ان يميز بين الموقفين ، ليتبين الفرق الشاسع بينهما .

اتخذ ابو الفتح الاسكندري موقف العابث اللامبالي ، اما عيسىبن هشام ـ الراوية ـ فانه يقف فيصف واحد مع القارىء يتفرج او يسمع ثم يصدر الحكم على البطل . وكلاهما ، أعني القارىء وعيسى ، قد اصدرا حكمهما فعلا . غير ان نقادنا المعاصرين ـ غفرالله لهم ـ يأبون الا ان يخلطوا بين شخصيتي الراوية والبطل ، ومن هنا يأتي خطأهم الشنيع . فأن الراوية عيسى ، هو مجرد رسام ،يعرض عليك احدى صور المجتمع ، وعليك انت ـ ايها القارىء او المتفرج ـ ان تصدر حكمك على موضوع الصورة اعني بطلها . انه ـ مثل اي اديب آخر ـ اعني بديع الزمان الذي هو عيسى في الوقت نفسه ، يصنع ما صنعه فيما بعد دوستيفسكي لراسكو لنيكون ، وفيكتور هوجو لجان فالجان. لقد حلل الوقائع وكشف الدوافع وترك مصير البطل بين يديك تحكم له او عليه .

واخيرا وها دمنا فهمنا المقامات على الصورة الحقيقية التي ينبغي لها ان تكون ، فقد آن الاوان لانعيد النظر في آرائنابابديع الزمان ، وبمقاماته وبأسجاعه . لقد كان فلتة من فلتات عصره ، وستبقى مقاماته المتعة، تحفة نادرة في عالم الادب الواقعيالنبيل..

بغداد — **أحسان الملائكة**

---

(١٣) مقامات بديع الزمان ـ تحقيق محمد محيالدين عبد الحميد .